العلاقات السودانية - المصرية في العصور القديمة رؤية جديدة

أ.د٠ عبد القادر محمود عبد الله د٠ يوسف مختار الأمين
جامعة الملك سعود ـ كلية الآداب

يمثل السودان ومصر الجزء الأعظم من وادي النيل الذي نشأت على ضفتيه فيهما أرقى حضارات الشرق الأدنى القديم وأقدمها. وقد ساهمت تلك الحضارة مع غيرها في دفع عجلة التطور الحضاري والثقافي للإنسانية جمعاء ، كما امتد أثرها إلى خارج محيطها الطبيعي فكانت نموذجاً يحتذى ويقلد. والحديث عن العلاقات الحضارية القديمة بين السودان ومصر يأخذنا مباشرة للنظر في حقائق الجغرافيا والتاريخ الضاربة في القدم. فالسودان ومصر - كما سنرى - يشكلان إقليمًا جغرافيًا واحدًا مهما تباينت وتنوّعت خصائصه الطبيعية والبيئية والسكانية، مما يجعل أمر الاتصال الحضاري بين طرفي وادي النيل أمرًا مفروغًا منه. ومن جهة ثانية فالاتصال الحضاري بين الثقافات والأمم القديمة مسألة تحتمها ظروف تطور المجتمعات وطبيعة الحياة الإنسانية ، فليست هناك حضارة منغلقة على نفسها ، فهي تنمو وتزدهر بقدر نجاحها في التكيّف مع بيئاتها الطبيعية والاتصال مع الغير أخذاً وعطاءً. فالانتشار والتمدد صفة ملازمة للحضارات الكبرى في التاريخ. ويبدو أن هذا الشيء قد حدث في وادي النيل كما سيتضح من عرضنا للشواهد الأثرية والتاريخية الدالة على الاتصالات الحضارية بين الإقليمين.

نود في بداية هذه الورقة أن نتناول موضوع الاتصالات الحضارية في العصور القديمة بطريقة نقدية نعرض من خلالها أهم الأفكار والآراء التي طرحها المؤرخون وعلماء الآثار في مراحل البحث الآثاري / التاريخي المختلفة والأسباب الفكرية التي قادتهم إلى هذه المواقف. وبمناقشة أمثلة محددة لبعض التعبيرات والظواهر الحضارية المشتركة أو المختلفة في البلدين نحاول أن نقدم رؤية جديدة لهذه العلاقات المتميزة والضاربة في القدم. إننا ننطلق من أن هذا الموضوع ظل حبيسًا لمفاهيم ومواقف فكرية تبلورت في الأكاديمية منذ مطلع هذا القرن ، ولم تتعرض لمراجعة موضوعية، وأنه آن الأوان للنظر فيها ومحاولة تقويمها علميًا. وتكمن أهمية مثل هذه المحاولة في أنها تتيح فرصة للنظر في تفاصيل خصائص وديناميات حضارات وادي النيل بطريقة أعمق وأشمل وهي أيضًا خطوة في إتجاه أكاديمي ربما يكون ذا فائدة في مواضيع أخرى.

إن موضوع صلات مصر الحضارية بغيرها من البلدان المجاورة يحيلنا مباشرة إلى رؤى علماء الآثار والتاريخ القديم حول الحضارة المصرية القديمة نفسها من ناحية تقييمهم لها ومكانتها ضمن منظومة حضارات الشرق الأدنى القديم.

والحضارة المصرية معروفة بعظمة منجزاتها في العمارة والفنون والآداب والإدارة للكتاب الإغريق والرومان الذين سجلوا ملاحظتهم منذ القرن الخامس قبل الميلاد. وقد أبدوا إعجابهم بمنجزات المصريين القدماء والسودانيين في بلاد النوبة إلى الجنوب من مصر، كما فعل هيرودوت في وصفه للمنطقة. وفي العصر الحديث تدفق الأوروبيون على مصر خاصة بعد حملة نابليون في ١٧٩٨ م ومنهم من سجل وصفًا دقيقًا لآثار مصر ومنطقة النوبة وبرزت لهم حضارة مصر زاهية بفنونها وعمارتها ولغتها القديمة تمتد بإشعاعها في كل الجهات. وبعد قراءة النصوص القديمة ظهرت على السطح فكرة أن بلاد النوبة ولاية هامشية تخضع للدولة المصرية القديمة ويوصف سكانها بالبربرية وأنها فقط مصدر الذهب والعاج والعبيد. وعندما أجري المسح الأثري الأول في بلاد النوبة عند بناء خزان أسوان في ١٩٠٧م ، كان البحث موجهًا أساسًا نحو تسجيل الآثار المصرية في الجنوب ولمعرفة مدى التأثيرات الحضارية المصرية فيه. وعندما اكتشفت حضارات مختلفة لا تتفق مع ما هو معروف في مصر ولا يعرف اسم لأصحابها أطلق عليها رايزنز أسماء حروف أبجدية ووصفها بأنها تعود لمجموعات سكانية وفدت من خارج المنطقة. وتعززت الفكرة القائلة بأن شمال السودان كان طيلة تاريخه واقعًا تحت تأثير الحضارة المصرية المباشر وذلك عندما أجري المسح الأثرى الثاني (١٩٢٩ - ١٩٣٤). وزعم الكثير من العلماء في ذلك الوقت بأن كوش ما هي إلا صورة باهتة للحضارة المصرية وأن السودان كله ظل بعيدًا عن دائرة الحضارات الكبيرة في المشرق[١].

لم يكن الأمر وقفًا على السودان وحده بل أن حضارات البلدان الأخرى في شمال شرقي إفريقيا أصبحت تقاس بما أنجزته الحضارة المصرية القديمة. وقد نما اتجاه فكري ينادي بعزل مصر القديمة عن محيطها أو عمقها الإفريقي بوصفها حضارة متميزة لا شبيه لها في إفريقيا وأن الأخيرة تختلف عن مصر حضارة وسكانًا. راجت هذه الأفكار في وقت لم تكن القارة الإفريقية معروفة جيدًا ولكن تأثيرها قد انعكس سلبًا في ضعف الأبحاث العلمية عن العلاقات المصرية - الإفريقية في التاريخ القديم[٢]. وكان قد انتشرت في علمي الآثار والأنثروبولوجيا في ذلك الوقت نظرية الإنتشارية كعامل حاسم في عمليات التغيّر الحضاري ، وبالتالي اتخذت حضارة مصر القديمة أصلاً لمعظم الابتكارات الإنسانية التي تسربت منها إلى مختلف أنحاء العالم، حيث صار هناك ما يعرف " بالمركزية المصرية " في تفسير أحداث التاريخ القديم في المنطقة. ونسي أصحاب هذا الرأي ما قد يكون أخذته مصر من خارجها وضمته في حضارتها؛ فقد عرفت بالمرونة وحسن الاستيعاب.

---

[١] W.Y. Adams, 1977, Nubia, Corridor to Africa (London), pp. 1-10 .

[٢] D.O'Connor, 1990 "Egytology and Archaeology : An African Perspective". in Peter Roberstshaw, A History of African Archaeology (London), pp. 236-251

لم يتم تصحيح فكرة ركود السودان حضاريًا إلا بعد أن نشرت نتائج حملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٥٩ - ١٩٦٩) إذ اتضح أن منطقة شمال السودان شهدت تسلسلاً حضاريًا مستمرًا منذ العصر الحجري القديم وحتى الفترة الإسلامية.

واتضح كذلك، أن مجتمعات ما قبل التاريخ عرفت صناعات حجرية متميزة تبلغ أكثر من عشرين نوعًا، فيها من الابتكارات ما يجعلها في مصاف الأخريات المعروفة في المنطقة. واستمرت الأبحاث حول ما قبل التاريخ بعد ذلك في مصر خاصة في وسطها وفي الجنوب والصحراء الغربية المتاخمة لوادي النيل. كما عملت بعثات أخرى مختلفة في أواسط السودان وفي شرقه. وقد كانت نتائج هذه الأبحاث ملحة لإعادة النظر في رؤية العلماء للتطور الثقافي لفترة ما قبل التاريخ في وادي النيل. وقد تبين أنه قد اتسم بحيوية وإبداعات محلية ساهمت من خلالها شعوب المنطقة في دفع حركة التطور الحضاري امتاز بها الشرق القديم في نهاية فترة ما قبل التاريخ وظهور المدنيات القديمة. أما فيما يتعلق بالتاريخ الحضاري لدولة كوش في السودان وما بعدها فقد أوضحت هي الأخرى التمايز والتنوع الحضاري مقارنة بمصر. فعلى الرغم من وجود الأثر المصري إلا أن خصوصية الحضارات المتعاقبة ومحليتها كان أمرًا واضحًا. ويكفي هنا الإشارة إلى واحدة من نتائج الأبحاث الميدانية الحديثة وهي تتعلق بظهور الدولة في كرمة بشمال السودان نحو ٢٠٠٠ ق.م. إذ كانت المستوطنة مدينة كبيرة منتعشة سياسيًا واقتصاديًا وتمتعت بنظام إداري وعسكري. واتضح من مبانيها ومساحتها أنها أول مدينة معروفة في إفريقيا خارج مصر وأنها عاصمة لدولة مستقلة في النوبة العليا (السودانية حاليا)[٣].إن مثل هذه الاكتشافات وغيرها أدى إلى ظهور التيار الفكري المغاير في الدراسات الحضارية السودانية الذي يركز على التطور الثقافي المحلي، مما يدعو إلى وضع العلاقات بين طرفي وادي النيل في سياق المعلومات الجديدة . وهو تيار يتبناه اليوم معظم العاملين في حقل الدراسات السودانية.

لن يكتمل الحديث عن التيارات الفكرية الرئيسية التي نظر من خلالها الكتاب والمؤرخون إلى حضارة مصر وعلاقاتها بجيرانها إلا بذكر ما عرف بتيار "الزنجوية ". بدأ هذا التيار كحركة أدبية في غرب إفريقيا ضد الاحتلال الفرنسي وهيمنة الثقافة الغربية، فكان الاعتزاز بالتاريخ الإفريقي وتفوقه. ومن هنا جاء الاهتمام بالآثار والتاريخ القديم، كما بدا من أطروحة شيخ أنتا ديوب ، الذي ينادي بربط إفريقيا السوداء ومصر الفرعونية معًا، وحشد لذلك الأدلة الأثرية واللغوية وغيرها لإثبات إفريقيتها. وقال إن ا لفراعنة كانوا قومًا إفريقيين سودًا. وعلى الرغم من الشكوك التي تحوم حول نظرية ديوب إلا أنه استطاع أن يحيي الدور الحضاري

---

[٣] شارل بونيه ، ١٩٩٧ ، كرمة مملكة النوبة . تراث إفريقي من عهد الفراعنة (ترجمة أحمد محمد علي الحاكم وإشراف صلاح الدين محمد أحمد . الخرطوم) .

لمصر وإفريقيا في التاريخ العام للبحر المتوسط وأوروبا[٤] ولقي هذا الاتجاه دعمًا عندما طرح مؤخرًا مارتن برنال نظريته الجديدة عن الأصول الزنجية للحضارة المصرية التي نقلتها بدورها إلى أثينا الإغريقية التي تعد أصل الحضارة الغربية الحديثة. ويقول برنال أن الآثار والتاريخ وما سطره الكلاسيكيون في الغرب كلها تشير بأن حضارة مصر الفرعونية جاءت من إفريقيا السوداء.

ولم يتم إبعاد مصر عن عمقها الإفريقي إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر، مع حركة الاستعمار الأوروبي لإفريقيا[٥].

ومن جهة أخرى يتخذ بعض الأكاديميين العروبيين مواقف مناقضة لأطروحة " الزنجوية ". فعلى سبيل المثال يرى جمال حمدان أن التاريخ والجغرافيا يضعان مصر في المشرق العربي، وأن وجودها في إفريقيا ليست له أبعاد حضارية ، ما عدا أن مصر أعطت النوبة الحضارة ومصّرتها. فالعلاقات كانت ذات اتجاه واحد من الشمال إلى الجنوب ولا تتعدى الشلال الثالث جنوبًا[٦]. إن مثل هذه الآراء وغيرها تجعل من إعادة النظر في العلاقات السودانية - المصرية أمرًا مهمًا، فقد أشرنا إلى نتائج الأعمال الأثرية الحديثة وكيف غيّرت في مفاهيم العاملين في المنطقة حول التطور الحضاري في السودان وخصائصه المتميزة التي تجعله موازيًا لمصر في كثير من الأوجه. إن الرؤية التي نحاول إضافتها لمجهودات الآخرين نجد مسوغاتها فيما يأتي :

(١) أن السودان ومصر قطبان حضاريان، قديمان، متوازيان، بينهما اتصال بمختلف الصفات لا بد أن يؤثر أحدهما على الآخر ويتأثر به ، فلا يجوز عقلاً أن يكون التأثير المستمر من أحدهما، والتأثر الدائم من الآخر.

(٢) هناك إنجازات حضارية تساوى فيها القطبان، مستقلين، وأخرى سبق السودان فيها مصر، وغيرهما تفوق فيها السودان على مصر، بالإضافة إلى مشتركات حضارية أبدع فيها السودان وامتاز.

(٣) كان للسودان دور مهم في مصر، مؤثر في حضارتها، بعد احتلال الكوشيين (قدماء السودان) لمصر، فيما يعرف بالأسرة الخامسة والعشرين الكوشية.

(٤) من السودان أشياء دخلت في الحضارة المصرية، تؤكد المصادر المكتوبة ، كمتون الأهرامات، ونصوص التوابيت وكتاب الموتى، أنها سودانية من *تاستي* (الأرض المقوسة)، منطقة جبل البركل.

---

[٤] شيخ أنتا ديوب ، ١٩٧٩ ، الأصول الزنجية للحضارة المصرية (ترجمة حليم طوسون . القاهرة ، ١٩٩٥) .

[٥] يعتقد برنال في اطروحته " أثينا السوداء " أن علماء المصريات أنفسهم وقعوا فريسة للفكر الأوروبي، الذي يريد إبعاد مصر عن أصولها الإفريقية. ويشير إلى الأدلة الأثرية الحديثة لمجتمعات العصر الحجري الحديث في الصحراء، التي نبعت منها الدولة المصرية القديمة. كما يتساءل في نفس الوقت عن طبيعة العلاقات بين حضارة مصر والداخل الإفريقي التي تجد تعبيراتها في أكثر من مجال في الفنون والأساطير والمعتقدات ... الخ

[٦] جمال حمدان ، ١٩٩٣ ، شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان (القاهرة) ، ص ص ٢٤٩ - ٢٥٧ .

لهذه المسوغات لا بد من الرؤية الجديدة، والنظر إلى السودان ومصر نظرة مختلفة عن النظرة السابقة، بأنهما قطبان حضاريان، متجاوران، مؤثر أحدهما على الآخر. وليس الباحثان منحازين للسودان، أو أول من كتب في هذا الصدد، فهناك معرض الآثار السودانية بمتحف جامعة بنسلفانيا، الذي كان اسمه " النوبة، منافسة مصر في إفريقيا "[٧]. لكن المرء يتحفظ على استخدام لفظة " النوبة " كمرادف للسودان أو بديل عنه. فمعروضات المعرض شاملة لحضارة السودان ككل، تتجاوز النوبة مكانًا وزمانًا، لا كما يوحي اسم المعرض .

نهر النيل والبيئة القديمة

لا يمكن التعرض للصلات بين السودان ومصر دون نظرة فاحصة في نهر النيل، لأهميته في هذه الصلات، ولتأثيره المباشر على نوع الحياة في البلدين. يعد نهر النيل أهم الظواهر الطبيعية في السودان ومصر، فهو مع غيره من عوامل طبيعية يشكل البيئة القديمة التي تفاعلت معها الأقوام التي عاشت بجواره على مر الأزمان، وأثرت في حياتهم سلبًا أو إيجابًا. ولمعرفة ظروف العلاقات بين السودان ومصر علينا أن نلقي نظرة على تلك الأحوال البيئية حتى نتبين دورها في تحديد معالم تلك الاتصالات بين أقاليم وادي النيل. يمثل نهر النيل، أطول أنهار العالم، شريان الحياة وعصبها في السودان ومصر، ليس اليوم فقط وإنما على امتداد تاريخ استيطان البشر منذ عشرات الآلاف من السنين. فالنيل هو مصدر المياه الدائم، ويجلب معه الطمى من الهضبة الأثيوبية لتخصيب الأرض على ضفتيه، مما يجعلها صالحة للزراعة. فهي على ضيق مساحتها كانت دائمًا عماد الاقتصاد المعيشي لسكان الوادي. وقد كان النهر الوسيلة الرئيسة المتوفرة للنقل، فهو الممر الطبيعي إلى إفريقيا حيث الموارد الطبيعية المطلوبة في آسيا والمتوسط طيلة فترة التاريخ القديم. وهكذا أصبح محور حياة الناس في الماضي ولا يمكن استيعاب تاريخهم دون النظر في مزايا النهر وعطاياه، ومنطقة النوبة في شمال السودان كانت المكان الذي عبرت من خلاله الأشياء والأفكار وامتزج فيه البشر، فنالت بذلك مكانة متفردة . ومن جهة أخرى فقد كان لنهر النيل أيضًا بعض العقبات الطبيعية التي تعيق الحركة. ففي المنطقة الممتدة من الخرطوم حتى أسوان نجد ستة شلالات يكاد يكون عبور بعضها أمرًا عسيرًا (الخارطة ١) وهذه مسألة ستكون مهمة عند مناقشتنا لعوامل الفصل والاتصال في الفترة التاريخية.

يجري نهر النيل من الخرطوم حتى مشارف الدلتا في أرض صحراوية قاحلة،وهناك يتفرع إلى عدة أفرع صغيرة تصب في البحر المتوسط. أما في بقية السودان من حدوده الجنوبية والشرقية حتى الخرطوم فيختلف الحال، حيث تتمدد الأنهر وفروعها والمجاري الفرعية الدائمة والموسمية. وتوجد في السودان أيضًا

[٧] D. O'Connor, 1993 , Ancient Nubia, Egypt's Rival in Africa (Philadelphia).

مساحات شاسعة صالحة للزراعة والرعي قديمًا وحديثًا. ولا يكتمل وصف جغرافية وادي النيل دون الإشارة إلى أهمية ظاهرة الصحراء على جانبي الوادي منذ سادت فيها ظروف مناخية مواتية لحياة الإنسان في العصور الحجرية ، وانتقلت المؤثرات الحضارية عبرها من شمال إفريقيا إلى السودان ومصر. ولم ينحصر الاستيطان البشري على ضفاف النيل إلا بعد أن عمّ الجفاف في المنطقة مع فجر التاريخ. والتاريخ الجيولوجي لنهر النيل يوضح بجلاء قدم المجرى، فقد أوضحت الأبحاث أنه قد حفر مجراه منذ نحو ربع مليون سنة، إذ وجدت الرسوبيات الطمّية من أصل أثيوبي في تكوين دندرة. وقد تقطع النهر بعد ذلك ولم يأخذ مجراه إلا في حدود ٦٠٫٠٠٠ ق.م. وتختلف الآراء في التكوين النهائي لمجرى النيل إذ يرى البعض أنه قد وصل الدلتا في حدود ٢٠٫٠٠٠ ق.م. ومهما يكن من أمر فقد أوضحت الأبحاث الجيولوجية والمناخية أن النهر قد فاض في تاريخه الطويل فيضانات كبيرة خلفت وراءها مصاطب عالية من الرسوبيات، ما زالت بقاياها موجودة، وكان آخرها في الألف السابع قبل الميلاد وبعد ذلك أصبحت الفيضانات النهرية على النمط السنوي الذي نعرفه اليوم[٨].

وفي فترة العصر الحجري القديم كان الناس يستغلون أطراف الصحراء والأودية خلال مواسم الأمطار، ويقتربون من النهر في السهل الفيضي عندما يحلّ الجفاف في المنطقة. ويشهد على ذلك انتشار مواقع العصر الحجري القديم في كل من السودان ومصر.

علاقات السودان ومصر في ما قبل التاريخ

كان للنيل أهميته في حياة الصيادين الذين دخلوا منطقة وادي النيل منذ المراحل المبكرة لفترة ما قبل التاريخ. فهو بالإضافة لكونه يوفر الأسماك والحيوانات المائية وغير المائية وخيرات النبات في القنوات الفرعية والبرك. إضافة إلى ذلك يمثل النهر المجرى الطبيعي لمياه ثابتة، وبالتالي يسهل مهمة انتقال مجموعات الصيادين شمالا وجنوبًا في الوقت نفسه. فأوائل السلالات البشرية التي يعتقد أنها جاءت من الشرق والجنوب الإفريقي لا بد وأن اتخذت طريقها من السودان إلى مصر عبر وادي النيل. فتاريخ الصناعات الحجرية المبكرة في كل من السودان ومصر كلها أحدث نسبيًا من مثيلاتها في شرق إفريقيا. كذلك فإن وصول الإنسان العاقل الحديث (Homo sapien sapien) كان هو الآخر في الاتجاه نفسه من الجنوب إلى الشمال، كما يشير إلى ذلك اكتشاف هذا النوع مؤخرًا في قنا، إذ يعود تاريخه إلى نحو ٤٠٫٠٠٠ ق.م. مما يجعله من أقدم النماذج المعروفة في الشرق الأدنى. وبالنظر إلى تقاليد الصناعات الحجرية في العصرين، الحجري القديم الأسفل والأوسط يلاحظ أنها تعكس شبهًا في الأنواع وتقنية صناعتها على طول وادي النيل

[٨] F. Wendorf & R. Schild, 1976, Prehistory of the Nile Valley .

في السودان ومصر، ولم تظهر الاختلافات الإقليمية بوضوح إلا بحلول العصر الحجري القديم الأعلى. فالتباين البيئي وتراكم التجارب المحلية أدى إلى بروز بعض الخصائص التي تميّز كل إقليم عن الآخر[٩]. وعلى الرغم من ذلك، يلاحظ أن المنطقة الممتدة من أواسط مصر وحتى الشلال الثاني عثر فيها على صناعات حجرية ومخلفات مادية أخرى وجدت معها، تشترك في عدد من الخصائص مما يجعلها متشابهة. وهذا يشير إلى انتقال المؤثرات الحضارية من منطقة لأخرى، ربما نتيجة لهجرات مجموعات سكانية في اتجاهات معاكسة. ويجدر بالإشارة هنا إلى أن السودان في وسطه وشرقه شهد خلال هذه الفترة تطورات حضارية متميّزة، تعكس تجارب مختلفة في بيئة تختلف عن البيئة النيلية في نهاية العصر الحجري القديم[١٠].

بحلول مرحلة إنتاج القوت، في فترة العصر الحجري الحديث، عندما تمكن سكان المنطقة من زراعة الحبوب وتربية الحيوان وصناعة الفخار ضمن ابتكارات حضارية أخرى، يستطيع المرء أن يلاحظ بوضوح عناصر الاختلاف والالتقاء في مسيرة التطور الحضاري في وادي النيل. ومن المعروف أن هذه الفترة شهدت تحولات عميقة في الاقتصاد المعيشي وفي النظم الاجتماعية والفكرية. ومع النمو السكاني السريع تهيأت المنطقة لظهور أنظمة إدارية تتحكم في شئون الأفراد والمجتمع، مما مهد الطريق إلى نشوء الدولة المركزية. وهكذا يبدو منطقياً أن نبرز

أهم معالم هذه الفترة وأوجه التمايز بين شطري وادي النيل، حيث تشكلت خلالها الأسس التي قامت عليها الحضارات القديمة . فالقطبية الثقافية التي أشرنا إليها بدأت في الوا قع منذ العصر الحجري الحديث، ولكنها أخذت أبعادًا أكثر وضوحًا وأهمية في الفترة التاريخية ، كما نوضحه في الصفحات التالية.

عندما يذكر العصر الحجري الحديث بخصائصه الحضارية في وادي النيل المعروفة يبرز في المقدمة الظهور المبكر لصناعة الفخار في أواسط السودان في الألف الثامن قبل الميلاد. وهو بذلك أقدم فخار معروف في وادي النيل، وربما في إفريقيا كلها. وجد هذا الفخار بأنواعه أولاً في موقع الخرطوم القديمة، وهو النوع الصلب غير المصقول تزينه خطوط متصلة مموجة وأخرى متقطعة مموجة أو متعرجة. وقد عاش أصحاب حضارة الخرطوم على صيد الحيوانات البرية والأسماك وغيرها، إضافة لجمع الحبوب البرية . وأقاموا أكواخهم في مستوطنة كبيرة على ضفاف النهر القديم. ومن أدواتهم أحجار جرش الحبوب، والخطاطيف العظمية ذات الأسنان من جانب واحد وثقب في أحد طرفيها. وعلى الرغم من أنهم لم يتمكنوا من الزرا عة أو استئناس الحيوان إلا أنهم يمثلون سبقاً حضارياً قامت عليه مجتمعات العصر الحجري الحديث الأخرى على طول وادي النيل الأوسط وداخل السودان. فقد

---

[٩] المرجع السابق نفسه .

[١٠] Yousif M. Elamin, 1987, "The Later Palaeolithic in Sudan in the Light of New Data from the Atbara" , in Thomas Hagg (ed.), Nubian Culture Past and Present (Stockholm), pp. 33 - 46 .

وجدت مواقع عديدة من هذا النوع في السودان الأوسط وشمالا حتى وادي حلفا. كذلك وجد فخار الخرطوم بزخارفه المعروفة في أماكن بعيدة من الصحراء الإفريقية حتى النيجر وفي الصحراء الليبية وفي شرق إفريقيا(١١).

وتمكن سكان أواسط السودان وشماله فيما بعد من استئناس الأغنام والماعز والأبقار، التي يعتقد أن بعضها جاءهم مستأنسًا من الصحراء الغربية. كذلك عرفوا زراعة الذرة والدخن في حدود الألف الرابع قبل الميلاد . وبما أنه نشأت مستوطنات كبيرة بالقرب من النيل في الفترة ٦٠٠٠ - ٣٠٠٠ قبل الميلاد، إلا أنه حدث تغيّر في نمط الاستيطان، عندما تبنّى سكان السودان الاقتصاد الرعوي والاعتماد على منتجات الحيوانات. ويبدو أن الطبيعة الجغرافية لسهول السودان ساعدت في هذه العملية . وهكذا يتضح أن سكان وادي النيل في السودان قد استفادوا من تجارب مجتمعات العصر الحديث من الصحراء ، في الوقت الذي تمكنوا فيه من تطوير ثقافات محلية لها من المنجزات ما هيأهم لإنشاء دويلات مركزية ، كما حدث في كرمة في شمال السودان في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.

أما مصر في فترة العصر الحجري الحديث فقد حدثت فيها تطورات حضارية مهمة، مثل استقبالها الحبوب المدجّنة مثل القمح والشعير من مواطنها القديمة في شرق المتوسط. والشيء نفسه يقال عن الحيوانات المستأنسة، كما تشير على ذلك الأدلة الآثارية في أواسط مصر. فقد عرفت الزراعة وتربية الحيوان في الفيوم في الألف السادس قبل الميلاد، ومعها الأواني الفخارية المصقولة، ذوات القواعد المسطحة أو الدائرية جيدة الصنع مما جعل البعض يعتقد أنهما تقنية وافدة من بلاد الشام، وأن بعض مظاهر التطور الحضاري في هذه المنطقة لا يمكن إرجاعها للعصر الحجري القديم في المنطقة(١٢).

أما على مستوى التجارب المحلية المبكرة فلا بد لنا أن نذكر المكتشفات الأثرية المهمة في جنوب مصر، مثل ما وجد في أطراف الصحراء غرب أبي سمبل من مواقع يعود تاريخها إلى ٦٨٥٠ - ٦٥٥٠ ق.م. وكان من ضمن المعثورات حبوب متفحمة تمثل أكثر من أربعين نوعًا من النبات ، كالذرة والدخن والبقوليات والجوز وغيرها من الأنواع الدرنية . ويعتقد أنه يوجد دليل كاف على أن الغذاء النباتي طوّر محليًا في هذه المنطقة ، بمعزل عن تجارب تدجين القمح والشعير في بلاد الشام(١٣). وبلغ التطور الحضاري في العصر الحجري الحديث ذروته في مصر بظهور حياة الاستقرار القروية الكاملة في تاريخ مبكر في مواقع مثل مرمدة بني

(١١) R. Haaland, 1992, "Fish, Pots and Grain : Early and Mid Holocene Adaptations in the Central Sudan" , African Archaeological Review 10, pp. 43 - 64 .

(١٢) B. G. Trigger, 1982, "The Rise of Civilization in Egypt" , The Cambridge History of Africa 1 (Cambridge), pp. 478 - 546 .

(١٣) F. Wendorf, et. als., 1992, "Saharan Exploitations of Plants 8000 years B.P.", Nature 359, pp. 721 - 724 .

سلامة في غرب الدلتا ومستوطنات العمري ومواقع حضارات ما قبل الأسرات ، كالبداري ونقادة الأولى ونقادة الثانية. لقد أقام سكان هذه المستوطنات حضارة زاهية فيها من الابتكارات الفنية والحرفية ما نقل مجتمعاتهم إلى مستويات اقتصادية واجتماعية متقدمة غير مسبوقة في وادي النيل . وقد أفضت هذه التطورات كما هو معروف إلى ظهور أقدم دولة مركزية في العالم القديم.

إن الأدلة الأثرية من مواقع العصر الحجري الحديث تشير إلى أن منطقة وادي النيل تداخلت فيها عناصر ومؤثرات حضارية جاءت من الصحراء إلى مصر وإلى أواسط السودان، كما أن مصر تلقت تأثيرات من شرق المتوسط في الوقت نفسه . وقد أدى نمو المجتمعات في هذه الفترة إلى حركة اتصالات شملت أجزاء من شرق إفريقيا . فالزجاج البركاني (obsidian)، الذي وجد كأدوات في مواقع ما قبل الأسرات، ربما وصل إلى مصر من أثيوبيا عبر السودان . كذلك هناك شبه بين مقابر ما قبل الأسرات في مصر وتلك التي تعود إلى العصر الحجري الحديث في السودان ، مما يستدعي عقد مقارنات علمية للتعرف على معنى هذا التشابه[١٤]

فيما يلي استعراض لعوامل الوصل والفصل بين السودان ومصر ، تليه مسوغات الرؤية الجديدة .

عوامل الوصل والفصل والصلات في العصور التاريخية

الاتصال بين السودان ومصر وثيق منذ القدم، أثمر عن مشتركات حضارية لا تحصى، ساهمت فيه عوامل اتصال مهمة ، تغلبت على عوامل فصل طبيعية وبشرية اصطناعية قوية أيضًا . فيما يلي نبذ يسيرة عن عوامل الوصل والفصل.

إن أهم عامل اتصال بين السودان ومصر النيل والطرق البرية بمحاذاته، أو بعيدًا عنه نسبيًا أحيانًا. لكن النيل نفسه ليس سهلاً يسرًا في كل الأوقات، ولا الطرق المحاذية له أو البعيدة عنه، الصحراوية غالبًا . فالنيل يفيض ويغيض موسميًا، والملاحة فيه تتأثر بذلك. ففيضانه يكون قبل الشتاء، وحين تكون الرياح جنوبية، فتسهل الملاحة إلى الشمال، وتتعسر إلى الجنوب بسيرها عكس التيار والرياح. كما أن أماكن الشلالات الثلاثة الأوائل (من الثالث جنوبًا إلى الأول شمالا.الخارطة ١) تعسر عبورها الدوامات المائية القوية الناتجة عن شدة اندفاع الماء بين الصخور الجرانيتية المتناثرة في قاع ضحل نسبيًا. وفي الشتاء والصيف ، حين يهبط مستوى الماء إلى حده العادي، تبرز صخور الشلالات وعشرات آلاف الجزر الرملية التي تجعل الملاحة من بينها أمرًا خطرًا ليلاً أو نهارًا، خشية اصطدام المراكب بالصخور الجرانيتية بين الشلالات أو رسوخها في رمال المياه الضحلة أو الجزر الرملية.

---

[١٤] Fekri Hassan, 1998, "The Archaeology of North Africa at Kiekrz 1997", African Archaeological Review 15, pp. 85 - 93 .

وتزداد المهمة عسرًا إن كان الزمن شتاءً ، والرياح شمالية ترابية تهب جنوبًا ، فتدفع المراكب المتجهة جنوبًا دفعًا نحو هذه المخاطر، أو تعوق المراكب المتجهة شمالاً. وفي الصيف تخمد الرياح عادة، وإذا ما هبت فهي ترابية جنوبية بمفعول معاكس للرياح الشمالية، والمخاطر المصاحبة لها هي نفسها. أما الطرق البرية، فإنها صحراوية وإن حاذت الوادي، لأنها تسير بأطراف المزارع والمناطق المأهولة ، تعترضها " بطن الحجر "، جنوب سمنة وشمالها (الخارطة ٢)، وهي أرض صخرية جرانيتية جرداء، أعلى بكثير عن مجرى النيل ، تحفه من الجانبين وتصل إلى مجراه، غير صالحة للسكنى، ولا يقدر على عبورها المرء برًا، ولا خيار له سوى النيل الذي لا وادي له فيها سوى في بعض الأماكن المتفرقة. وفي سمنة نفسها يصبح الصخر سدًا في النيل (اللوحة ١)، بمنفذ ضيق، وعر، النفاذ خلاله عسير، كان النيل فائضًا أم ضحلاً. هذا أمر العائق الطبيعي.

والعائق الاصطناعي للاتصال أمثل ما يكون في زمن الأسرة الثانية عشرة في الدولة الوسطى المصرية (نحو ١٩٩١ - ١٧٨٥ ق.م.)، حين أصبحت كوش (السودان قديمًا) مصدر إزعاج كبير لمصر من الجنوب ، فبنيت الحصون الأربعة عشرة ، الممتدة من سمنة جنوبًا إلى الشلال ، جنوب أسوان ، شمالاً ، وذلك للتحكم في الحركة شمالاً ، والحد من التحركات الشمالية لكوش الواقعة جنوبها . واختيرت سمنة ، في وسط أرض الحجر من النيل ، لوعورة موقعها لتكون البداية من الجنوب ، ولتبنى عليها ثلاثة حصون مرة واحدة ، اثنان (شمالي وجنوبي) على الضفة الغربية في سمنة غرب ، وواحد على الضفة الشرقية في سمنة شرق (المعروفة بُقمّة أيضاً) . فاجتمعت وعورة الأرض ، بوعورة المنفذ المائي مع الحصون الثلاثة . وأكد الغاية من الحصون ومناسبة المكان لها نص للملك المصري سانوسرة الثالث ، من الأسرة الثانية عشرة ، على لوحة نصبت في سمنة نفسها[١٥] تحرم على " النحسيين " وحيواناتهم تجاوز ذلك المكان، بالبر أو بقارب ، إلا لثلاثة أشياء، سفارة أو تجارة في إقن (ميرقسا) الواقعة شمال سمنة ، أو أي عمل يستفاد به منهم. ولم تكن القيود مقصورة على فترة الدولة الوسطى المصرية فحسب، ولكنها استمرت بصورة ما أو أخرى في العهود التالية للأسرة الخامسة والعشرين. فكانت العلاقات بين كوش (السودان) ومصر تتحسن وتسوء ، والقيود في الحدود توضع وترفع ، خلال الأسرة السادسة والعشرين الصاوية، أو بعد بطلميوس الخامس في الفترة البطلمية، أو خلال الحكم الروماني لمصر.

وبالرغم من هذه العوائق فقد تم الاتصال الوثيق ، بين السودان ومصر ، منذ الدولة القديمة المصرية إلى الحكم الروماني لمصر . وتمثل في (أ) التجارة، (ب)

[١٥] Fekri Hassan, 1998, "The Archaeology of North Africa at Kiekrz 1997", African Archaeological Review 15, pp. 85 - 93 .

التعاون العسكري، (ج) الإقامة المتبادلة، والتزاوج والخدمة، (د) الحكم المتبادل . فيما يلي نبذ يسيرة عن كل واحد.

(أ) التجارة

التجارة لم تنقطع بين السودان ومصر، ولا حاجة للتدليل عليها، لوفرة أدلتها من المعثورات. وكان بعض التجارة نيليًا، بوادي النيل، وبعضها الآخر بريًا ونيليًا، تبدأ من غرب السودان إلى النيل في شمال السودان فيما يعرف بدرب الأربعين ،

وتستمر نيليةً إلى مصر، أقدم ما يعرف من هذا رحلات حرخوف، في الأسرة السادسة من الدولة القديمة، التي صحبه في بعض منها حراس محليون يرافقونه من مكان لآخر، وترجمان. وكانت أسوان مركزًا مهمًا لتجارة الجنوب، ما يدل عليه اسمها ومعناه " السوق "، أو حرفيةً " (مدينة) المقايضة ". واستثناء التجارة لتجاوز سمنة في نقش سانوسرة الثالث دليل على أهميتها. ولما استوطن الكوشيون معظم الأرض جنوب أسوان منذ القرن الثاني قبل الميلاد (الخارطة ٢) توثقت التجارة أكثر عن ذي قبل، ومعها الاتصال الحضاري.

(ب) التعاون العسكري

يتمثل التعاون العسكري في خدمة السودانيين في الجيش المصري. من أقدم أدلته ما ورد في نقش وني (وني : ١٥ - ١٦) من ذكر للأقوام السودانية التي عاونته في حملته في آسيا، كما تؤكده كثرة التماثيل الطينية والخشبية لكتائب سودانية عدة في الجيش المصري من الدولة الحديثة بخاصة.

(ج) الإقامة المتبادلة والخدمات والتزاوج

عرف السودان ومصر كلاهما إقامة متبادلة لهؤلاء وأولئك هنا وهناك وخدمات وتزاوجًا. فمنذ الدولة القديمة المصرية أقام سودانيون في مصر ، في منف كما قطع بذلك مرسوم ببي الأول[١٦] وفي الجبلين[١٧]، وكان بعضهم من مستويات اجتماعية عالية، تزاوج بعضهم بالمصريين، وخدم بعضهم في مناصب نافذة في البلاط في الأسرة العشرين. ذاك من أمر السودانيين في مصر. ومن جهة أخرى أقام مصريون في السودان ، كما هو واضح من الجبانة المسماة " الجبانة المصرية " في كرمة[١٨]، الراجعة للدولة الحديثة المصرية، ومن الجبانة الغربية في مروي نفسها[١٩]. وهناك من المصريين من عمل في خدمة الكوشيين ، مثل "كا" الذي خدم

---

[١٦] Fischer, 1961, "The Nubians of Gebelein" , Kush IX, p. 76 .

[١٧] المرجع السابق نفسه .

[١٨] G. A. Reisner, 1923, Excavations at Kerma I - III (Harvard African Studies, Cambridge, Massachussetts) .

[١٩] D. Dunham, 1965, Royal Cemeteries of Kush V. The West and South Cemeteries (Boston) .

نجح " ملك كوش "[٢٠] ، وسوبدحور الذي كان قائدًا للجند في بوهين وبنى معبدًا أرضى به " ملك كوش "[٢١]، وذلك في عصر الاضمحلال / الانتقال الثاني المصري، وقبل الدولة الحديثة المصرية.

(د) الحكم المتبادل

كان للحكم المتبادل بين السودان ومصر دور مهم جدا في توثيق الصلات بينهما ، وترسيخ المشتركات الحضارية ، وذلك حين احتلت مصر شمال كوش في الأسرة الثامنة عشرة، وحكمتها حكماً غير مباشر بحاكم مصري، من غير الأسرة المالكة، حمل اللقب " ابن الملك في كوش "، وظلت تحكم شمال كوش حتى نهاية عهود الرعامسة ، في الأسرة العشرين. ثم فتحت كوش مصر أيضاً، الصعيد أولاً في زمن كوشتو فكلها ما عدا سايس (صا الحجر) في زمن بيّي (بعانخي في قراءته القديمة)، ثم كلها مكونة الأسرة الخامسة والعشرين تحت شباكو وشبتكو وتارقو (تهراقا في قراءته القديمة). وعرف تارقو في النصوص الآشورية لأسرحدون وأشوربانيبال " بملك مصر وكوش " (*شر مُصُر وقوش*)[٢٢].

الرؤية الجديدة ومسوغاتها

كما سبق ذكره بإيجاز وسيفصل فيه هنا، فالسودان ومصر قطبان حضاريان ، قديمان، متوازيان، بينهما تماثل بيئي طبيعي من ناحية، واختلاف من ناحية أخرى ، أثمرا عن تماثل حضاري مستقل في المنشأ واختلاف أيضًا، اتضح في حضارات مستقلة في كل منهما، متسلسلة منذ عصور ما قبل التاريخ[٢٣]، تساويا في أشياء، وسبق أحدهما الآخر أو تفوق عليه في أخرى. وبما أن السودان هو موضوع هذه الرؤية ، فإن المسوغات المقدمة التالية، موجهة لخدمة قضيته.

(١) الاستقلالية

استقل البلدان، كل واحد منهما عن الآخر، في إنتاج القوت، مثل استئناس الحيوان والزراعة. فمن الحبوب المدجنة ما أتى مصر من شرق المتوسط. أما في السودان فقد تمت زراعة حبوب مختلفة فيه، جاءت من الصحراء الغربية[٢٤].

(٢) السبق السوداني

وإن سبقت مصر السودان في أ شياء، فإنه أيضًا سبقها في أخرى . فمما سبق فيه ما يأتي :

---

[٢٠] T. Save-Soderbergh, 1949, "A Buhen Stela from the Second Intermediate Period (Khartum No. 18)" , Journal of Egyptian Archaeology 35 (London), pp. 50 - 58 .

[٢١] المرجع السابق نفسه .

[٢٢] L. W. King, 1901, Assyrian Language (London), pp. 153 (line 53) , 157 (line 78) .

[٢٣] C. Bonnet, 1990, Kerma, Royaume de Nubie (Geneve), p. 8.

[٢٤] ص ١٠ من البحث .

١. الفخار

لقد سبق السودان مصر بكونه أقدم من أنتج الفخار في إفريقيا[٢٥].

٢. الحديد

انفرد السودان بالقدرة على صهر الحديد من خامه الصخري المتوفر بجوار مدينة مروي (قرب شندي الحالية)، والذي توفرت الأخشاب لحرقه من غابات المنطقة نفسها قديمًا ؛ فكان بذلك أول من استخرج الحديد من خامه في إفريقيا[٢٦].

٣. الأبجدية الصرفة

وإن كانت مصر قد سبقت العالم كله، والسودان القديم منه، في الاهتداء لمبدأ الأبجدية[٢٧] ، وكتبت آلاف المفردات أبجديًا، فإنها لم تستغن برموزها الأبجدية عن الرموز الأخرى في نظام كتابتها الخليط المكون من رموز المعاني، ورموز الأصوات المقطعية، ومخصّصات المعاني. لكن السودان في القرن الثاني قبل الميلاد سبق مصر في الكتابة الأبجدية الصرفة ، بكتابته لغته الكوشية ، المشهورة بالمروية ، كتابة أبجدية صرفة بثلاثة وعشرين رمزًا، وفاصلة للكلمات[٢٨] وبذلك أصبحت اللغة المروية أول لغة إفريقية ، تكتب كتابة أبجدية صرفة. ولعل ذلك نشر الكتابة والقراءة في السودان الانتشار الواسع الذي دعا ديودور الصقلي ليقول بأن القراءة والكتابة كانتا أوسع انتشارا بين الأثيوبيين (يعني الكوشيين) مما بين المصريين[٢٩]. وذلك مع الإقرار بأن رموز الكتابة المروية، التصويرية والتجريدية، من أصول مصرية، تصويرية (هيروغليفية) وتجريدية (ديموطيقية)[٣٠].

(٣) التفوق والإبداع

من مجالات التفوق والإبداع في السودان القديم مجالات فيها مشتركات حضارية، يرى في بعضها تفوق أساسي، وفي الأخرى تنويع مبدع ينم عن استيعاب للمشترك الحضاري وإبداع يقارب الأصالة. فيما يلي بعض الأمثلة.

١. الفخار

---

[٢٥] ص ٨ من البحث .

[٢٦] J. Garstang, A. H. Sayce and F. L1. Griffith, 1911, Meroe. The City of the Ethiopians (Oxford), p. 21.

[٢٧] عبد القادر محمود عبد الله ، ١٩٩٥ ، الكتابة الأبجدية في مصر القديمة : أول اهتداء لمبدأ الأبجدية (الرياض)

[٢٨] عبد القادر محمود عبد الله ، ١٩٨٦ ، اللغة المروية ، الجزء الأول (الرياض) .

[٢٩] F. L1. Griffith, 1907, The Meroitic Inscriptions. Part 1 (London) p. 32 .

[٣٠] F. L1. Griffith, 1911 , Karanog, The Meroitic Inscriptions of Shablul and Karanog (Philadelphia), pp. 22 - 24 .

لا شك في تفوق فخار كرمة، المحروق ، الوردي، ذي الشفة السوداء، على ما سواه في وادي النيل في زمانه، مادة، وشكلاً، وتقنية، وحرقاً. أما الفخار المروي، الناعم المزخرف فلا مضارع له في مصر أيضًا ، تقنية وزخرفة، وبخاصة في زخرفته بموضوعات غير دينية؛ ففيه تفرد وتفوق في الصنعة والموضوعات وأسلوب تنفيذها فنيًا بأسلوب تعبيري أو انطباعي[٣١]، حدا بوولي ومكيفر لوصف المرويين بأنهم بلغوا فيه مبلغًا من التميز لم يبلغه فاخوري آخر أو مزخرف أبدًا[٣٢] ، وبأنهم أظهروا أصالة وبعدًا عن مصر في الموضوعات غير الدينية. كما وصفاه، في تفرده وموضوعات زخرفته أيضاً، بأنه يصلح لأن ينظر إليه من زاوية الاثنوغرافيا الإفريقية[٣٣].

٢. موائد القرابين

موائد القرابين من المشتركات الحضارية التي سبقت فيها مصر السودان . لكن السودان تفرد بصنف منها لا يعرف له مثيل في مصر، وإن كان له موازٍ نوعًا ما في موائد قربان من صنف معين من أخميم. فالصنف الذي تفرد به الكوشيون في الفترة المروية عليه تصوير لأنوبيس ومعبودة من المعبودات، كثيراً ما تكون إيزة، تليها في المرتبة نفثيس، يصبان الماء على قرابين فوق مائدة مصورة أو بدونها، أو بجوار حوض بيضوي، إلى غير ذلك من الأشياء[٣٤]. فهذا صنف من الموضوعات لم يعرف في مصر ، وإن كان عنصراه، المعبود والمعبودة، معروفين في الديانة المصرية القديمة. ولا يناظره من حيث الموضوع إلا ذلك النوع من موائد القرابين من أخميم ، ومعظمها بمتحف القاهرة [٣٥]، الذي تصور عليه نوت (آدمية، أو شجرة، أو جمعًا لهما) وصاحب مائدة القربان أو صاحبتها، تصب نوت الماء على صينية قربان يحملها الميت ، أو تحملها الميتة.

٣. تماثيل البا

صنعت في كوش، في الفترة المروية، تماثيل للبا " الروح " لم تعرف في مصر. فتماثيل البا (الروح) وتصاويرها التقليدية في مصر تمثلها جسم طائر برأس إنسان. أما تماثيلها الكوشية من الفترة المروية فتجمع جسم الإنسان كاملاً، من رأسه إلى إخمص قدميه، خلفه جسم طائر بلا رأس أو رجلين. وتظهر على

---

[٣١] W. Y. Adams, 1964, "An Introductory Classification of Meroitic Pottery", Kush XII (Khartoum), pp. 126 - 173 .

[٣٢] C. L. Woolley and D-R, Maclver, 1910, Karanog, The Romano-Nubian Cemetery III (Philadelphia), p. 4 .

[٣٣] المرجع السابق نفسه ، ص ص ٥٦ - ٥٧ .

[٣٤] Abdelgadir M. Abdalla, 1982, "Meroitic Funerary Customs and Beliefs : from Texts and Scenes" , Meroitica 6 (Berlin), p. 85 .

[٣٥] A. Bey Kamal, 1969, Catalogue Ceneral des Antiquites Egyptiennes du Musee du Caire. Tables d'Offrandes (Le Caire) .

جسم الإنسان ثيابه كاملة، وعقوده وقلائده، في كامل إهابه وزينته ، كما تحمل يداه رمزي سلطته، عصاه القصيرة في اليمنى ومنشته أو منديله في اليسرى، عادةً. فهو، بذلك، ومن دون جسم الطائر، تمثال كامل مفصل، يقف وقفة كاملة برجلين متحاذيتين متلاصقتين[٣٦].

فمثل ما في النقطتين الأخيرتين (ب ، ج) تصرف واع مبتكر فيه مباينة للمصري، الأمر الذي جعل الباحثين يعدون مثل هذين النموذجين لا تقليدًا ومحاكاة لما في مصر، وإنما تكييفاً لفكرة يظهر عبقرية رائعة. يرى ذلك في وصف وولي ومكيفر للكوشي بأنه مطوّع ومكيف أكثر منه ناقلاً، وأنه طبع ما أخذه بعبقريته الخاصة وأنتج منه شيئاً فيه سمة الأصالة على أية حال[٣٧].

(٤) الدور السوداني في مصر : سياسيًا وحضاريًا

للدور السوداني في مصر وجهان، سياسي وحضاري، يعد مهمًا جدًا في وجهيه في التاريخ المصري القديم السياسي والحضاري؛ ذلك لأن تملك الكوشيين (قدماء السودان) للسلطة في مصر جاء بعهد عظيم في تاريخ مصر سياسيًا وفنيًا[٣٨].

فبدلاً من أن تؤدي السيطرة الكوشية في مصر إلى تدن في حضارتها ، فإنها جاءت ببعث حضاري أثمر عن أعمال فنية تنافس أجود ما أنتجته العصور السابقة[٣٩]. لذلك فإن الدور الخصب الذي لعبه الكوشيون كان في بعث مصر سياسياً وحضاريًا بالعودة بها إلى القديم. بدأ ذلك منذ بيّي (بعانخي في قراءته القديمة)[٤٠]، واستمر في أسرتهم الخامسة والعشرين الكوشية لمصر ، وواصله بعدهم ملوك الأسرة السادسة والعشرين، الصاوية[٤١]. وإن كان الدور الحضاري هو الأهم في التعلق بموضوع البحث ، إلا أنه لا بد من شيء- ولو قليل -عن الدور السياسي .

الدور السياسي

حين حكمت كوش مصر، مكونة الأسرة الخامسة والعشرين، جمعت ملك كوش (السودان) ومصر معًا، وأعطت مصر وحدة سياسية بعد تفرق بين حكام عدة ، وبخاصة في الوجه البحري (الدلتا)، بعد قضاء بيّي (بعانخي في قراءته السابقة) أولاً، وشباكو بخاصة من بعده ثانيًا على الفرقاء[٤٢]. وفي عهدي شبتكو وأخيه تارقو (تهارقا في قراءته السابقة) عادت مصر للساحة الدولية نداً لآشور، سيدة الشرق آنذاك ، في عصرها الآشوري الحديث. ولم يكن تارقو حاكماً قوياً فحسب، وإنما قائدًا

---

[٣٦] Abdelgadir M. Abdalla, 1984, "Meroitic Social Stratification" , Meroitica 7 (Berlin), p. 40.

[٣٧] وولي ومكيفر ، المرجع السابق نفسه ، ص ٤ .

[٣٨] B. V. Bothmer, et, als., (compilers), 1978. 2nd. repr., Egyptian Sculpture of the Late Period. 700 B.C. to A.D. 100 (New York), p. 1.

[٣٩] المرجع السابق نفسه .

[٤٠] N. Grimal, 1988, Histoire de L'Egypte Ancienne (Fayard) , p. 416 .

[٤١] B. V. Bothmer, et, als., (compilers), op, cit. p. 37.

[٤٢] N. Grimal, op. cit., p. 399 .

عسكريًا منذ شبابه وهو في العشرين، اتضح اهتمامه بتدريب جيشه الكوشي المصري ولياقته البدنية في السباق المراثوني بين منف والفيوم ، ذهابًا وإيابًا، الذي نظمه واشترك فيه راكبًا حصانه[٤٣].

الدور الحضاري

لا يقل الدور الحضاري لكوش في مصر عن الدور السياسي، إن لم يزد عليه . وتجاوز دورهم المساهمة المادية في البناء والصيانة للمعابد في مصر ، والكرنك بصفة خاصة[٤٤]، إلى المساهمة غير المادية التي أرست قواعد البعث الحضاري الذي آتي أكله واستمر في الأسرة السادسة والعشرين، الصاوية. فيما يلي نماذج محددة مختارة لما ذكر.

(أ) البعث اللغوي

كتب ملوك كوش نصوصهم بلغة مصرية بأسلوب الأسرة الثامنة عشرة، وهو أسلوب الدولة الوسطى كما هو معلوم[٤٥]، لا بلغة الدولة الحديثة والفترة المتأخرة منها، التي كانت سائدة في مصر آنذاك. فجاءوا بشيء قديم من العصر الذهبي للغة المصرية القديمة، نسته مصر نفسها، ولم تعد الدولة الأم له قادرة على إنتاجه آنذاك[٤٦]. وأصبح أسلوب بيّي في نصه المشهور (نص الانتصار) نمطًا للنصوص الملكية فيما بعد[٤٧]. إلى جانب الحيوية جاءت النصوص الكوشية بالصدق والواقعية في الحديث . خير أمثلتها ن ص بيّي المذكور ونصوص تارقو أيضًا ، وبخاصة حيث علل في نقش له (Kawa V : 9) ذلك الفيضان العظيم الفريد، الذي كان في زمنه، بكرم أبيه آمون رع من ناحية، ومناخيًا من ناحية أخرى، بالأمطار الغزيرة التي هطلت في *تاستي* (الأرض المقوسة) من السودان، وجعلت تلالها تتوهج[٤٨]. وهو تفسير مناخي لم يسبق فيه أحد. فهي واقعية في الرواية تتطابق مع الواقعية الكوشية في فن النحت (انظر ج) .

(ب) البعث الفكري

بدأت الأسرة الخامسة والعشرون الكوشية عودة إلى الفكر المصري القديم كما تمثله " مدرسة منف " لا " مدرسة طيبة " التي كانت غالبة قبل استيلائهم على السلطة . وهي عودة في الفكر تواكبها عودة إلى فن منف (انظر ج) . ودلل على

---

(٤٣) Ahmed Mahmoud Moussa, 1981, "A Stela of Taharqa from the Desert Road at Dahshur" , Mitteilungen des deutschen Archäologischen Instituts, Abteilung Kairo 37 (Kairo), pp. 331 - 337 .

(٤٤) K. A. Kitchen, 1973, The Third Intermediate Period in Egypt (Warminster), pp. 378 - 798 .

(٤٥) M. F. L. Macadam, 1949, The Temples of Kawa I (Text. London), p. xiii, K-H. Priese, 1972, "Zur Sprache der ägyptischen Inschriften der Könige von Kusch" , Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde 98 (Berlin), pp. 99 - 124 .

(٤٦) A. H. Gardiner, op. cit., p. 336 .

(٤٧) N. Grimal, op. cit., p. 431.

(٤٨) M. F. L. Macadam, op. cit. I (Text), p.27, (Plates), pl. 10:9.

الاهتمام بفكر منف ، ونظرية منف التي تنسب الخلق إلى إلهها بتاح ، أمر شباكو بأن تنقل نظرية منف من برديتها المتآكلة إلى حجر من البازلت[٤٩]، وذلك لأول مرة في تاريخها. واستمر بعث الفكر المنفي في الأسرة السادسة والعشرين الصاوية من بعدهم أيضًا[٥٠].

(ج) البعث الفني

في التصاوير على جدران المعابد التي بنتها الأسرة الخامسة والعشرون الكوشية عودة لطراز منف. ولم تستثن كوش نفسها منها. فقد أمر تارقو بأن تزين بعض جدران معبده (المعبد T) في كوة في السودان بمناظر معروفة من الأسرة الخامسة في الدولة القديمة المصرية ، مأخوذة من هرمي ساحو رع وني وسر رع في أبو صير ومن هرم ببي الثاني في سقارة[٥١]. ويؤكد تعمد تارقو طراز منف وإدراكه له بقطعه نصًا في نقش له (Kawa IV : 21 - 22) بأنه بعث إلى كوة بفنانين من منف ، معهم رئيس الفنانين[٥٢]، هم أولئك الذين نفذوا زخرفة معبده.

وواكب البعث في التصوير الفني بعث في النحت أيضًا، بالعودة بمصر إلى معايير الدولة القديمة فيه. فبلغ النحت في زمن الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية مستوى ليس له نظير خلال الخمسمائة سنة التي سبقت استيلاءهم على الحكم في مصر[٥٣].

(د) نموذج سوداني في الفكر الديني المصري

إنه لمن المناسب في هذا المقام عن الدور السوداني في حضارة مصر التمثيل بدور المعبود السوداني القديم ددون في الفكر الديني المصري القديم . ولقد اخترنا التمثيل من الفكر المصري القديم لأنه أهم عنصر في الحضارة المصرية . فدخول شيء سوداني فيه، ومن فترة مبكرة كالدولة القديمة، وفي متون مهمة كمتون الأهرامات والتوابيت له دلالته. فددون تذكره المصادر المصرية القديمة والكوشية بأنه من *تاستي* (الأرض المقوسة) ، وأنه رب كوش، يرد في أقدم المصادر المصرية منذ الدولة القديمة، هي متون الأهرامات، ويتكرر في نصوص التوابيت في الدولة الوسطى، وكتاب الموتى في الدولة الحديثة.

ففي متون الأهرامات يوحد الملك بعدة معبودات أو يقرن بصورة ما أو أخرى بها، ومنها ددون، الموصوف بأنه " شاب الصعيد، الآتي من تاستي (الأرض المقوسة) "، في تعويذة البعث[٥٤]، أو " المهيمن على تاستي " في تعويذة صعود

---

[٤٩] K. A. Kitchen, op. cit., p. 381 .

[٥٠] N. Grimal. op. cit., p. 430 .

[٥١] M. F. L. Macadam, 1955, The Temples of Kawa II (Text, London), p. 63, (Plates), pls. X, XLIX.

[٥٢] M. F. L. Macadam, op. cit. I (Text), p. 16, (Plates), pls, 11, 12, II (Text), p. 15.

[٥٣] B. V. Bothmer et. als., op. cit., p. 10 .

[٥٤] R. A. O. Faulkner, 1969, The Ancient Egyptian Pyramid Texts (Oxford), p. 144, Utterance 437, د 803, p. 254, Utterance 572, د 1718 .

الملك إلى السماء[٥٥]. وفي نصوص التوابيت يرد ددون واحدًا مع معبودات يستعان بها لرد الروح لصاحبها[٥٦]، ومعها مرة أخرى كاسم سحري؛ في تعويذة هي نسخة من التعويذة ٣٠٦ من متون الأهرامات[٥٧].

ومثلما أن ددون واهب للمَلك عند الكوشيين، فإنه ورد واهبًا له لتحوتموس الثالث في تصوير معبده الصغير في سمنة، بالسودان[٥٨]. ففي المعبد تصوير لتحوتموس الثالث راكعًا لددون الذي تمتد يداه فوق تاج الملك، ويخاطب الكاهن ددون بأن *من خبر رع* (الاسم الملكي لتحوتموس الثالث)، ابنه العزيز، قد جلس على *عرش ددون* ، وورث تاجه، وصار ملك البلاد، وأن ملكه لن يتغير ، ويطلب من ددون تأييده { روح الملك }، وبسط رهبته في البلاد ... إلخ . أما لدى الكوشيين فإنه مصوّر في معبد أمون رع في البركل بالسودان، يتقبل القربان من تارقو ليمنحه الحياة والسلطان[٥٩]. وينص نص التتويج لأسبلتو (Aspelto 2) بأن ددون رب مدينة الجبل المقدس (جبل البركل) ، وأنه آتٍ من *تا ستي* ، وأنه رب كوش[٦٠].

لعله من المناسب أيضًا الإشارة إلى قرن نص من كتاب الموتى[٦١] للمعبودة سخمة (اللبؤة) *بتاستي* (الأرض المقوسة) ، حيث تخاطب سخمة بأنها الحرارة العظمى، المنبعثة وراء الإلهة القاتلة الواقفة في صدر سفينة أبيها، أي (المسماة) حر بغكشرشاب (في صيغة الجمع)، في لغة أهل تاستي. فهنا أورد الاسم في لغة السودان القديم، في صيغة الجمع، بعلامة جمع هي الباء في آخرها، وهي حرف الجمع نفسه في لغة كوش المعروفة باللغة المروية .

---

(٥٥) op. cit., p. 168, Utterance 480, د 999, p. 227, Utterance 572, د 1476.

(٥٦) R. A. O. Faulkner, 1977, The Ancient Egyptian Coffin Texts II (Warminster), p. 217, Spell 636 .

(٥٧) 1978, op. cit. III, (Warminster), p 21, Spell 832 .

(٥٨) W. Budge, 1912, Annals of Nubian Kings (London), pp. xxviii-xxix.

(٥٩) C. R. Leqsius, 1973, Denkmäler au Aegypten und Nubien (Geneve), Abtl. 5, Vol X, BL. 12a.

(٦٠) W. Budge, op. cit., p. 90 .

(٦١) Thomas George Allen, 1974, The Book of the Dead or Going Forth by Day (Chicago), p. 160, Spell 164 .

خاتمــة

لعل فيما تقدم من عرض يبرر الرؤية الجديدة في الصلات القديمة بين السودان ومصر، بأن الصلات صلات بين قطبين حضاريين عريقين في وادي النيل ، عرفا الحضارة مبكرين ومستقلين ، في زمانين متقاربين منذ عصور ما قبل التاريخ، وظلا قطبين كذلك إلى القرون الميلادية الأولى، واتصلا اتصالا وثيقاً بالرغم من عوامل الفصل القوية، أثمر اتصالهما عن مشتركات حضارية. ففي الرؤية الجديدة لا ينبغي النظر إلى هذه المشتركات الحضارية على أنها كلها مصرية، وأن ما كان منها في مصر فهو مصري خالص، وأن ما كان منها في السودان فهو آت من مصر. وإنما ينبغي البحث فيها بعمق أكثر بحثاً عن أصولها الحقيقية ما أمكن ذلك، وسواءً أكانت هذه أم تلك، فإنها ستظل دليلاً قويًا على متانة الصلات السودانية المصرية وعراقتها، وتغلبها على العوائق الطبيعية والاصطناعية البشرية التي ووجهت بها. فهنا من الشواهد ما يدل بوضوح على التنوع الحضاري في إبداع أشياءً مادية وأفكار كانت أصولها واحدة، إما في السودان أو مصر. كما أن عناصر التميز والاختلاف في عناصر الثقافة السودانية لا تخطئه العين سواءً أكان ذلك في عصور ما قبل التاريخ أو العصور التاريخية.

وبيت القصيد في البحث أنه لا يقبل عقلاً، مثلاً، أن يكون السودان، بعدما وضح من دور حضاري مستقل خاص به، ومساهمة واضحة في حضارة مصر خلال الأسرة الخامسة والعشرين ، أن يكون موضعًا للتلقي والتأثر ، لا مصدرًا لإرسال وتأثير أيضًا. فما دامت الحجة قد قامت له، فلا بد من البحث في حضارتي السودان ومصر من هذه الرؤية الجديدة، والقيام بدراسات موضوعية في حضارة مصر القديمة لعلها تؤدي إلى اكتشاف مزيد من الشواهد الدالة على مساهمة السودان فيها ، نوعًا وكمًا. وعلى الجانب الآخر لا بد للمرء من الاستعانة بإطار فكري ومنهجي ينظر من خلاله إلى تلك العناصر المشتركة بين الحضارتين من ناحية كيفية انتقالها من مصدرها واندماجها في النظام الثقافي المستقبل. إن استيعاب عمليات التأثير والتأثر ينبغي أن يكون جزءًا من تحليل شمولي لدينميات الأنساق الثقافية التي امتاز بها وادي النيل طيلة عصوره القديمة.

أماكن المواقع الأثرية

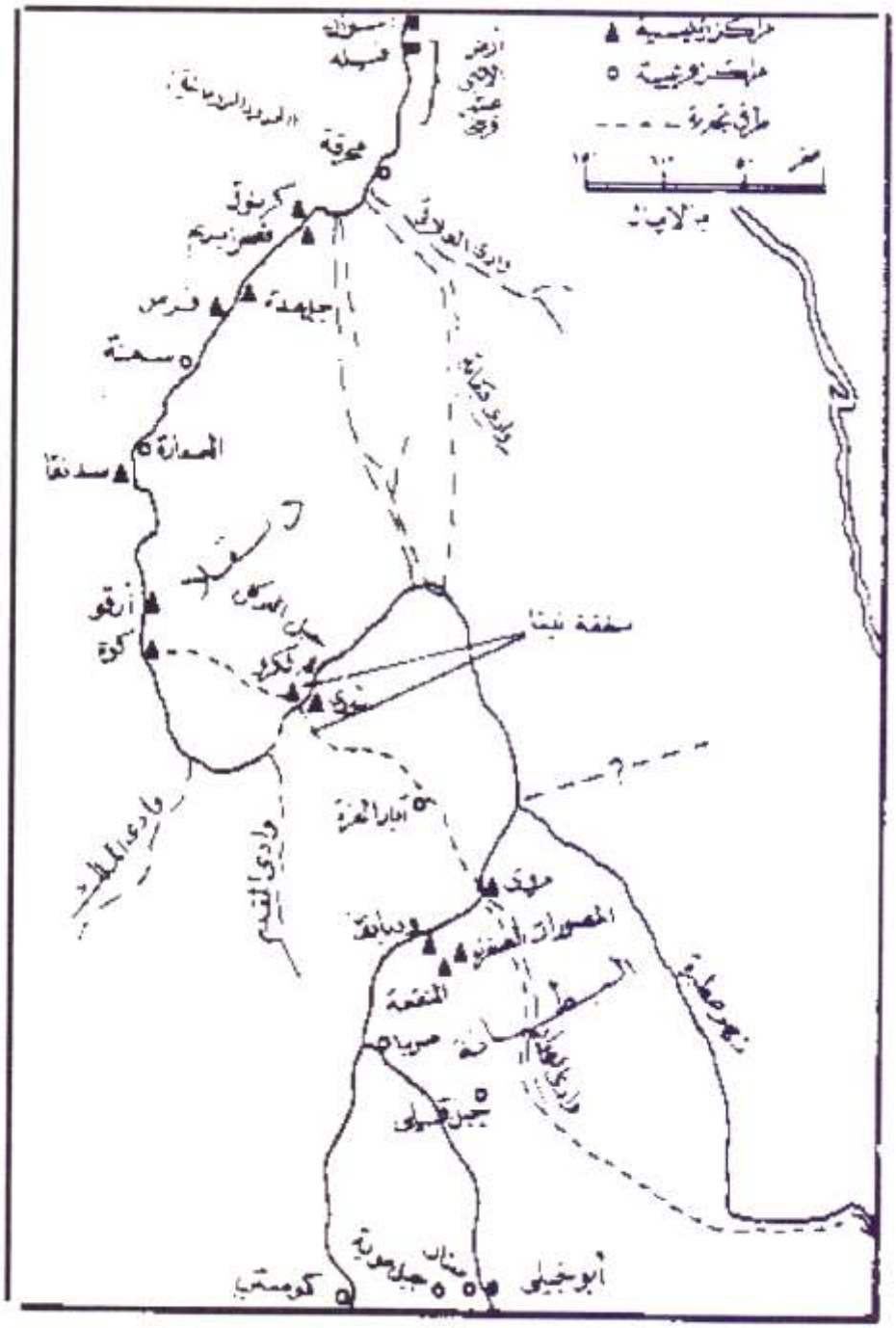

الخارطة (٢)

اتساع مملكة كوش فى الفترة المروية فى القرن الثالث الميلادى .من محرقة شمالا.

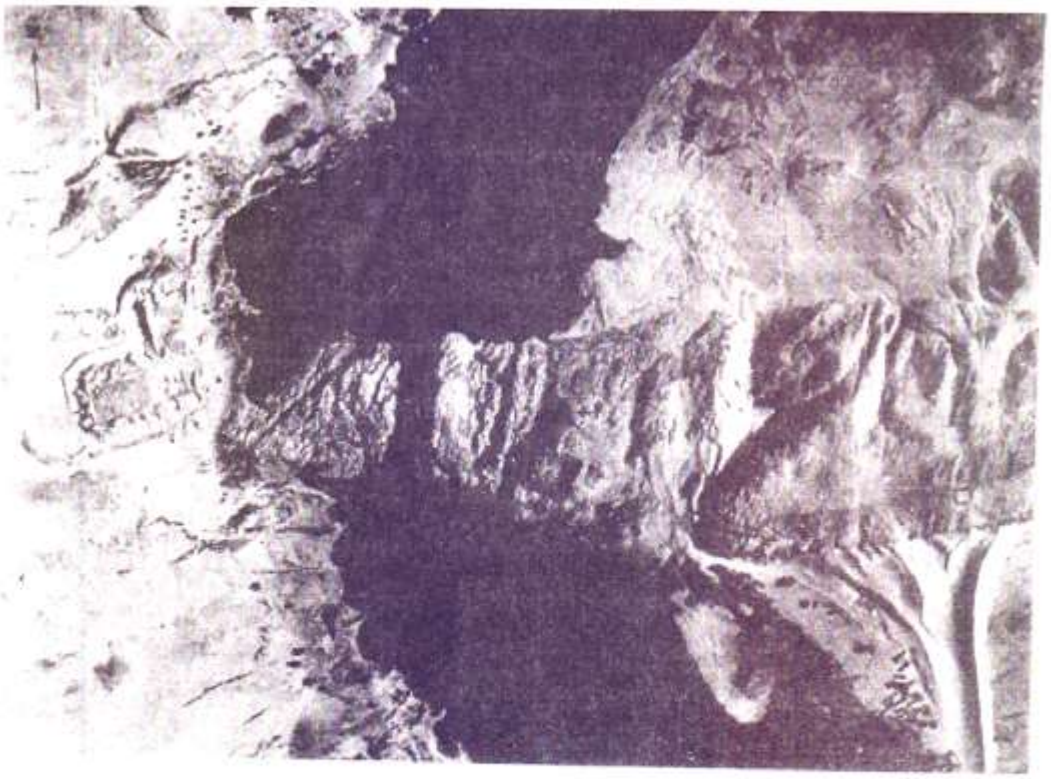

اللوحة (١)
سمنة . بداية الحصون المصرية الأربعة عشر من الجنوب . حصنان فى سمنة غرب وحصن فى سمنة شرق "قمة ".